

ملامح بناء الدرس الفونولوجي عند ابن جني

Features of the structure of the phonological lesson according to Ibn Jinni

أ.د. بن يحيى طاهر ناعوس*

جامعة غليزان (الجزائر)

benyahia.naous@univ-relizane.dz

تاريخ الاستلام: 2025 /12/12 – تاريخ القبول: 2025 /12/28 – تاريخ النشر: 2025 /07/06

ملخص:

نعرض في هذا البحث السبل العلمية التي اعتمدها ابن جني في بناء الدرس الفونولوجي رغم أنه هو من الأوائل واضعي هذا الدرس الفونولوجي وعليه يبقى السؤال مطروح ما أهم الدوافع العلمية التي ساقته إليه؟ وماهي أهم الخطوات التي أعتمدها في وضع هذه اللبنة العلمية؟ وما هي أهم الملامح الفونولوجية التي أعتمدها في تأسيس هذا الدرس؟ وماهي الأسس الفكرية والمنهجية والنحوية التي ركز عليها؟ هذه الأسئلة التي يُرتكز عليها في الإجابة وقد اعتمدت المنهج العلمي الوصفي وتحليلي في ذلك.

الكلمات المفتاحية: المنهج، الفونولوجي، الدرس، ابن جني.

Abstract:

In this research, we present the scientific methods that Ibn Jinni adopted in constructing the phonological lesson, even though he was one of the first to compile this phonological lesson. Therefore, the question remains: What are the most important scientific motives that led him to it, what are the most important steps he adopted in developing this scientific building block, and what are the most important phonological features that I adopted it in establishing this lesson, and what are the intellectual, methodological and grammatical foundations? These are the most important questions upon which the answer is based, and I have adopted the descriptive and analytical scientific method in this regard.

Keywords: curriculum, phonology, lesson, Ibn Jinni.

1. مقدمة:

ما انفكت تنتهي الدراسات اللغوية في القرن الثاني والثالث للهجري متواصلة، ونقصد بالتواصل هنا أنّها جاءت مكملّة، ومستفيدة ، ومأثرة ومتأثرة ببعضها بعضاً، فبعد وصف الخليل لمخارج الأصوات، جاء سيبويه ليفرق بين هاته الأصوات في شكل ثنائيات متقابلة، على ذلك فصل ما هو مجهور عن ما هو مهموس، على إثر هاته الإفرازات التي تمخضت عن فكر الخليل وتلميذه من بعده، لتتواصل حلقات التطور اللغوي مع ابن جني إذ تناول هذا الدرس بشيء من التمعن والتوضيح والإضافة، قبل هذا علينا التعرف على هذا العالم الذي لامس فكره الفكر اللغوي الحديث مقارنة بأصحابه الفراهيدي وسيبويه، وعليه من هو ابن جني ؟

2. حياة ابن جني كرونولوجيا:

يُعتبر أول من انطلق بفكرة أنّ اللغة هي أصوات يُعبر بها كل أقوام عن أغراضهم، واعتُبر مفهومه هذا مادة قانونية مازالت سارية المفعول، صاحب هاته الفكرة التي لامست الفكر العلمي الحديث هو " أبو الفتح عثمان بن جني، ولد في حدود سنة عشرين وثلاثمائة للهجرة، في الموصل، ترعرع وأخذ العلم عن مشايخه ». وما يهمننا في مقامنا هذا أنّ نتطرق لعبقريّة ابن جنيّ وليس إلى ميلاده وما ذكرناه فقط لتوضيح

الفترة الزمنية التي ولد فيها هذا العالم والتي تكلفت بدرس لغوي استحدث بعض الأمور التي لم يتطرق إليها سابقوه.

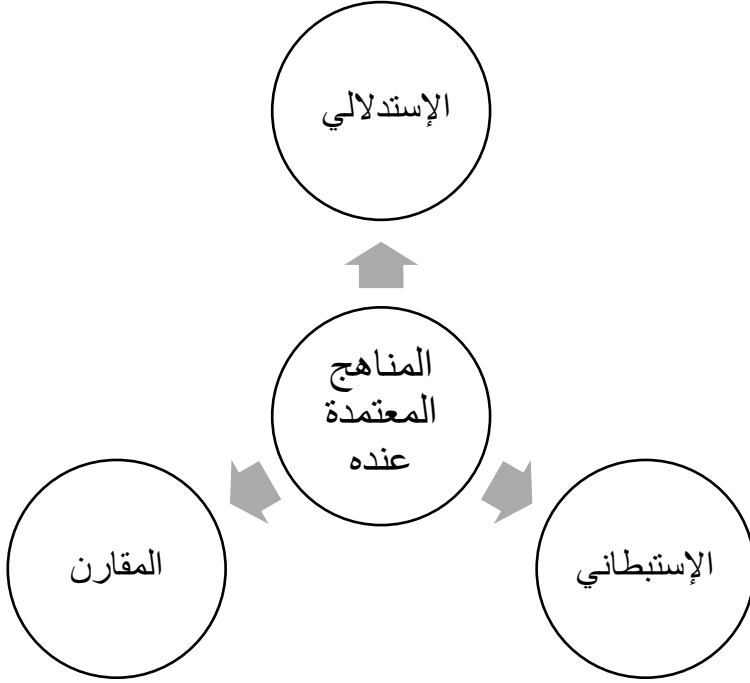
3. الأسس المنهجية لابن جني:

وعلى ذلك فمن بين الأمور اليقينية أن لكل علم منهجه الخاص به وما عرف عند ابن جني علم لغوي قائم بذاته مؤسس وفق منهجية مضبوطة، فقد كان ابن جني حنفي المذهب إذ يُعرف هذا المذهب بمنهجيته الاستنباطية والقياسية هذا ذكره مصطفى السواحلي في كتابه ابن جني ناقدًا: «والأحناف هم أبطال الحرية في الفكر الإسلامي وهم رواد مدرسة الاجتهاد»¹ والاستنباط والقياس.

عنى أنّ ابن جني لم يكن استقرائياً بل كان استنباطياً فقد انطلق في فكره من التجريد ليصل به للواقع، وللوصول إلى الواقع حتماً سيستخدم الباحث اللغوي بهذا الواقع فيضطر إلى القياس ليتماشى فكره والواقع، لذلك انتهج منهج علم الكلام.

عطفًا على ما سبق يُعدّ ابن جني «من اللغويين البارزين الذين تأثروا بمنهج المتكلمين في تعاملهم مع الظاهرة اللغوية من حيث استنباطُ العلل والأحكام، فقد استخدم منذ البدء الأدوات الإجرائية التي تركز على إخضاع الظاهرة اللغوية للعملية العقلية، القائمة على الاستدلال والاستنباط، والمقارنة بين الجزئيات لضبط الكليات، وحصر العلل والمعايير»².

من هذا يمكن لنا أن ننتهي إلى أن ابن جني قد انتهج عدة مناهج ويمكن حصرها فيما يلي:



وعلى ذلك لم يقتصر ابن جني فقط على هاتاه المناهج بل نجد المنهج الوصفي له نصيب من التداول في تلك الدراسات اللغوية لابن جني، وخاصة المجال الصوتي ثم إنَّ المنهج "الذي سار عليه ابن جني في درسه الصوتي هو المنهج الوصفي، إذ عالج الظاهرة اللغوية في وضعها الذي كانت عليه أيامه في معزل عن تطوراتها التاريخية، وهذا المنهج نفسه أحد المناهج المتبعة في دراسة اللغة إلى جانب المناهج الثلاثة الأخرى المقارن والتاريخي"³. والتقابلي.

يبرز لنا هذا بالمنهج الذي سلكه دي سوسير عندما فرّق بين المنهج التاريخي والمنهج الوصفي ووصف اللغة في مرحلة معينة من مراحل تطورها، وهاهنا اختلف مع دي سوسير ولم نقل بأنّه ألغى المنهج التاريخي، وهذا ما جعل التطابق بين المنهج الذي سلكه ابن جني ودي سوسير متطابقا تمام التطابق، المنهج وحده لا يكفي لمعرفة عبقرية ابن جني، بل نحتاج إلى تلك الأسس التي انطلق منها ليؤسس علمه هذا.

4 . أسس ومنطلقات الفكر اللغوي لابن جني:

4 . 1. الفكر المعتزلي:

من بين المنطلقات التي أسس عليها ابن جني فكره، الفكر المعتزلي فإننا «نجد ابن جني معتزليا من الرعييل الأول، ومعلوم أن المعتزلة هم حملة لواء الحرية الفكرية في فكرنا الإسلامي»⁴. هذه الفكرة تقرّ بحقيقة تأثر ابن جني بالفكر الاعتزلي، وهذا يبدو جليا في كتابه الخصائص إذ نلفيه يذكر في مقدمته: «الحمد لله الواحد العدل القديم»⁵ قوله " الواحد العدل " تحملان دلالة انتمائه المعتزلي، ولاسيما أهل المعتزلة يطلق عليهم اسم أهل العدل والتوحيد.

4. 2. الفكر الشيعي لديه:

إذا كان ابن جني معتزلي فهو حتما شيعي لأنَّ " الشيعة هم ورثة المعتزلة، ولا بد أن تكون قلة اعتداد المعتزلة بالأخبار المأثورة مما لاءم أغراض الشيعة⁶»، وبذلك فإنَّ ابن جني دينيا متشيع مناصرا لعلي كرم الله وجهه.

4. 3. منطلق الفكر الحنفي:

أمّا من الناحية الفقهية فقد كان ابن جني: «حنفيا، والأحناف هم أبطال الحرية في الفكر الإسلامي وهم رواد مدرسة الاجتهاد والاستنباط والقياس في الفقه⁷»، وارتفعت في ذلك إلى كتاب الخصائص إذ يقول: " وكذلك كتب محمد بن الحسن -رحمه الله- انتزع أصحابنا منها العلل لأهمّ يجدونها منشورة في أثناء كلامهم، فيجمع بعضها إلى بعض بالملاطفة والرفق⁸».

تجسد الاجتهاد في جمع العلل وقياس الفرع على الأصل على المنوال الفقهيين مستنبطين في ذلك الأدلة والبراهين، وهذا ما يشرح قولنا الذي سبق ذكره.

5. أساسيات الفكر النحوي لديه:

تعدّدت الآراء العلمية وتباينت في حقيقة الانتماء النحوي لابن جني فقد، "كثر الخلاف حول مذهبه النحوي، وقد عقد الدكتور السامرائي فصلا شافيا في رسالته التي عني فيه بابن جني نحويا وسرد في ذلك الفصل خمسا وخمسين مسألة مستدلا على أنه بصري المذهب، وليس كوفيا ولا بغداديا"⁹.

بناء على هاته المعطيات العلمية يمكن لنا أن نقّر بأنّ مادام ابن جني معتزلي، والمعتزلة تأبى التقيد وتنحى إلى التحرر الفكري، فإن الرّجل لم يتكئ على آراء مدرسة معينة، بل اقتبس من كل مدرسة عينة، ودمج كل هذه الأفكار للخروج بمذهب مستقل خاص به، وربما سر تفوقه وعبقرياته هو ذاك التداخل بين المدارس لديه.

6. ملاحم الدرس الفونولوجي عند ابن جني:

بداية يُعرّف ابن جني اللغة على أنّها «أصوات يعبر بها كل أقوام عن أغراضهم»¹⁰، إذا ما فككنا هذا التعريف فسنلاحظ أنّه ثلاث مصطلحات هامة هي (الصوت، التعبير، الأغراض) بمعنى أنّ ابن جني بيّن لنا أنّ اللغة هي أصوات، ويقصد بها أسبقية المنطوق على المكتوب وهذه الميزة تشترك فيها كل اللغات، ولفظة التعبير يقصد بها التواصل الاجتماعي وهي كذلك كلية من بين الكليات اللغوية، أمّا مصطلح أغراضهم فهذا قول صريح بأنّ اللغة وظائف مضبوطة، وهذه الفكرة تعدّ النواة التي أسست الفكر الوظيفي لدى مدرسة براغ.

هذا ما يمسّ اللغة عامة أما إذا توجهنا إلى التوضيح أكثر فسننتجه إلى المستوى الصوتي وهنا وجدنا ابن جني في تفريقه للحروف نلمحه يصرح بأنّه ولولا الإطباق "لصارت الطاء دالا، والصاد سينا والطاء ذالا ولخرجت الضاد عن الكلام لأنّه ليس من موضعها شيء غيرها، فتزول إذا عدت الإطباق إليه." ¹¹ « يقترب في هذه الفكرة ابن جني إلى حد بعيد من تلك المبادئ التي سنّها أصحاب مدرسة براغ وقول تروبسكوي يؤكد بما نحن بصدد توضيحه إذ يرى في هذا: « أنّ الصفة الوظيفية التي تسمح بتعريف الفونيم علميا تتمثل في كونه يدخل في تعارض فونولوجي واحد على الأقل»¹²، هذا التعارض الفونولوجي الذي تحدث عنه تروبسكوي هو نفسه ما صرح به ابن جني في تقابل الطاء مع التاء بحيث أن ميزة الاطباق في الطاء لها وظيفة فونولوجية.

وقد تنبّهت المدارس اللسانية الحديثة لقضية السمات المميزة للفونيمات، فإنّ الفونام "مجموعة من الخصائص الفونولوجية المميزة التي تجعله يتعارض مع كل الفونيمات الأخرى» وفي نفس السياق نرى ابن جني حين حدد لكلّ فونيم ميزته التي تميزه عن باقي الفونيمات الأخرى.

ومن هنا " على أنّ العين والقاف قد حسنتا الحال لنصاعة العين ولذاذة مستمعها، وقوة القاف وصحة جرسها، ولاسيما وهناك الدال والسين، وذلك أن الدال لانت عن صلابة الطاء، وارتفعت عن خفوت التاء، والسين أيضا لانت عن استعلاء الصاد، ورقّت عن جهر الزاي، فعذبت وانسلت ¹³ «. فالنصاعة لا تنسب إلا للعين، والقوة لا تنسب إلا للقاف، والليونة لا تنسب إلا للدال، والصلابة لا تنسب إلا للطاء، والخفوت للتاء.

هذه الوظيفة "لم تمس فقط الصوامت بل حتى للصوائت حظ من ذلك، كما أقر به علم اللغة الحديث، وحتى هذا لم يفلت من عبقرية ابن جني حين قال: « في لفظتي ذل، دُل اختاروا الضمة لقوّتها للإنسان

والكسرة لضعفها للدابة"¹⁴. ومن هنا فالقوة التي احتوتها الضمة لم تحتويها الكسرة، والوظيفة التي اضافتها الضمة للدلالة لم تكن للكسرة ولا للفتحة أن تضيفها على اللفظة.

مما سبق نستنتج أن ابن جني تنبه لتلك المميزات الفاصلة بين الحروف، واعتبر هاته الميزات كوظائف دلالية تحملها الفونيمات تحت طياتها، وهذا ما أقر به علم اللغة الحديث وخاصة مع مدرسة براغ والمدارس التي تبنت هذا الفكر فيما بعد.

وعليه فإن فكر ابن جني في تحديده لتلك المميزات الفاصلة بين الفونيمات لم يتوقف عند هذا الحد، بل تعدى ذلك لتحديد وظيفة اجتماع هاته الحروف في نسق لفظي معين، كما لم يسبق فكره هذا أحد من علماء اللغة الذين سبقوه أمثال الخليل وسيبويه، « إلا أن الذي جاء به ابن جني زيادة على الاستفادة من طريقة الخليل في التقلب، هو قوله أن هذه الأصول يختص كل منها بمعناه الذي استعمل فيه ولكنها جميعا تلتقي في معنى عام جامع يضم الأصول الستة فالقاف والواو واللام تدل على الخوف والحركة والكاف واللام والميم تدل على القوة والشدة¹⁵ » إذا ما تم لنا قراءة هذا القول قراءة تداولية قصدية، فسنخلص لفكرة مفادها أن في اجتماع هاته الفونيمات المساهمة في صنع الدلالة الجامعة، لنسق معين وأي تغيير يطرأ على أحد العناصر الفونيمية، حتما سيمس تلك الدلالة الجامعة.

هذه الدلالة الجامعة لا تعدّ كلية من كليات اللغة التي تشترك فيها كل الألسن البشرية بل هي تخص بعض الألسن ليس إلّا، وبل حتى داخل اللسان البشري الواحد ليست عامة في كل منطوقات هذا اللسان وهذا ما أقر به ابن جني في قوله: « واعلم أنا لا ندعي أن هذا مستمر في جميع اللغة، كما لا ندعي الاشتقاق الأصغر أنه في جميع اللغة¹⁶ »، من هذه الفكرة نفهم أن الدلالة الجامعة بين الملفوظات هي قصرا على بعض الألفاظ العربية فقط.

ومن هنا فالأصوات تابعة "للمعاني فمتى قويت ومتى ضعفت ضعفت، ويكفيك من ذلك قولهم قطع قطع، وكسر وكسر زادوا في الصوت الزيادة في المعنى واقتصدوا فيه لاقتصادهم فيه¹⁷ » ومن هنا الصوت تابع للمعنى، والعكس غير صحيح.

وقد وجدنا (أندري مارتيني) يتحدث عن قضية تلك العلاقات الجوارية بين الفونيمات داخل النسق الصوتي الواحد، ويتطرق إلى قضية تلك التغيرات النطقية « فالتغيرات الصوتية لا تحدث عرضا ولكنها دائما مشروطة، وتحاول اللسانيات التقليدية أن تجد تفسيرها لها في التأثير المتبادل بين الأصوات التي يجاور بعضها بعضا في سلسلة الكلام، وعلى الرغم من أن التأكيد على المستوى الاستنتاجي أي على المستوى

الذي يعني بتوارد الصوتيمات في سلسلة الكلام يلحق الضرر إلى حد ما بالتكامل الصوتيمي للصوتيمات، إلا أن تأثير التجاور في النظام هو الذي يحظى بالأهمية الكبيرة¹⁸. ما أبرزه (أندري مارتيني) في اللسانيات الحديثة نفس ما أثاره ابن جني قبل عدة قرون وقوله هذا يؤكد ما قلناه ولكم واسع النظر في ذلك، حين قال: «وأعلم أنَّ هذه الحروف كلما تباعدت في التأليف كانت أحسن، وإذا تقارب الحرفان في مخرجهما قبح اجتماعها ولا سيما حروف الحلق¹⁹» والعكس صحيح «وإذا اختلفت أحوال الحروف حسن التأليف²⁰».

وقد ألفينا ابن جني ذكر "أن العرب حين صيغة (استفعل) للطلب في الغالب كمستسقى واستطعم، واستوعب، كانت قد رتبت في هذا الباب الحروف على ترتيب الأفعال، وذلك لأن الهمزة والسين والتاء جاءت زوائد قبل الأصل لتعبر عن معنى الطلب، وطلب الفعل والسعي إليه عادة يتقدمه ثم تقع الإجابة له، والفعل من غيرها يؤدي معنى الإجابة، كقولك: طعم²¹ وتقديم ما يضاهي "أول الحدث وتأخير ما يضاهي آخره، وتوسيط ما يضاهي أوسطه، سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود".

7. خاتمة:

وخلاصة الحديث ي هذا الإطار هو أنَّ هذا القسم يندرج ضمن "مباحث ابن جني الصوتية تحت علم الفونولوجيا إذا أخذنا برأي من يقول أنه يهتم بدراسة الأصوات في التشكيل²²». وعلاوة على ذلك "لا تقتصر دراسته للأصوات اللغوية على الصوامت والصوائت فقط، بل تتعدها إلى عناصر أخرى ذات أثر في التخاطب والفهم، منها هذان العنصران، وإن كانت دراستهما لم تلق عناية كافية عند ابن جني وغيره من العلماء العرب، ولعل ما يكفي هذا الرجل فخرا، ويكفيها معه، انه تحدث قبل الغربيين بقرون عن أحدث نظرية في الصوتيات في القرن العشرين وإن لم يسمها وهي نظرية الصفات المميزة للصوت²³". وعلى ذلك نلاحظ أن بعض الحروف المستقبحة التي ذكرها ابن جني سائد في نطقنا اليوم، "فمن الناس من ترى في نطقه فوضى وبعدا عن الدقة، وخاصة الاصوات المتصفة بالأطباق والتفخيم، فيجعل الطاء كالتاء والصاد كالسين والطاء كالزاي والصاد كالدال، وقد يرقق بعضهم الراء في كل سياق دون النظر إلى المواضع التي ينبغي ان تكون فيها مفخمة²⁴» فكما نبعت "أفعال الإجابة أفعال الطلب، كذلك نبعت حروف الأصل الحروف الزائدة التي وضعت للالتماس والمسألة²⁵» وعليه "وقالوا صر الجندب فكرر الراء لما هناك من استطالة صوته، وقالوا صرصر البازي فقطعوه لما هناك من تقطيع صوته²⁶» ومن طريق "ما مر بي في هذه اللغة التي لا يكاد يعلم بعدها، ولا يحاط بقاصيها، ازدحام الدال والتاء والطاء والراء واللام

والنون، إذا مازجتهن الفاء، على التقديم والتأخير، فأكثر أحوالها ومجموع معانيها أنها للوهن والضعف ونحوها²⁷. ينبغي لزيادة توسيع الفكرة عند ابن جني لتكون الدراسة شاملة وموسعة.

إنّ هذا النسيج العلائق لتكبيبة الخطاب اللغوي وتمثلاته في تخزين المعلومات في الذاكرة الجمعية في شتى مظهراته البنائية، القائم على صميمية الترابط بين أسيقة النص وبنائه الصوغي ووفقا لسلمية بنائية (صوت، مفردة، تركيب)، يعكس صورة المجتمع المنشود من خلال الخطاب باللغوي.

ومن هنا ارتكبت إلى التراتبية التصاعدية لكيثونة التخلق اللغوي (لغة الخطاب اللغوي) الموجه بفعالية الأنموذج اللساني بوصفه سلوكا اجتماعيا يحاول صوغه وصناعة الأنموذج المقصود في تشكيلة المجتمع وربطه بالهدف الأخلاقي اللغوي المنشود، والذي تسيره ثبوتية العرف وتحولاته الطارئة في كينونته المشكلة لطبيعة الإنسان بصفة عامة.

8. الهوامش:

- ¹ أحمد حساني، مباحث في اللسانيات، ط2، 2013، ص173.
- ² مصطفى السواحلي، ابن جني ناقدًا، دار الأفاق العربية، ط1، 2015، ص59.
- ³ محمود حجازي، مدخل إلى علم اللغة وما بعدها، ص20.
- ⁴ مصطفى السواحلي، ابن جني ناقدًا، ص56.
- ⁵ ابن جني، الخصائص، ج1، ص1.
- ⁶ ابن جني، الخصائص، ج1، ص164.
- ⁷ مصطفى السواحلي، ابن جني ناقدًا، ص59.
- ⁸ المرجع نفسه، ص254.
- ⁹ مصطفى السواحلي، ابن جني ناقدًا، ص60.
- ¹⁰ ابن جني، الخصائص، ص124.
- ¹¹ كمال بشر، الأصوات، ص184.
- ¹² جورج مونان، علم اللغة في القرن العشرين، تر: غزاوي مؤسسة الوحدة، دمشق، د.ث، ص85.
- ¹³ ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج1، ص280.

- ¹⁴ ابن جني، المرجع نفسه، الصفحة نفسه.
- ¹⁵ حسام سعيد النعيمي، ابن جني عالم العربية، ص 79.
- ¹⁶ المرجع نفسه، نفس الصفحة.
- ¹⁷ ابن جني، المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تح: علي النجدي ناصف، ص 210.
- ¹⁸ ابن جني، المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تح: علي النجدي ناصف، عبد الفتاح اسماعيل شلبي، ج 2، ط 2، ص 210.
- ¹⁹ ابن جني، سر صناعة الإعراب، تح: حسن هندراوي، ج 2 ص 814.
- ²⁰ ابن جني، الخصائص، ج 1، ص 58.
- ²¹ حسام سعيد النعيمي، ابن جني عالم العربية، دار الشؤون الدينية العامة، بغداد، ط 1، 1990، ص 96.
- ²² مجلة التراث العربي، العددان 15 و 16، 1404. أبريل، 1984، ص 269.
- ²³ مجلة التراث العربي، العددان 15 و 16، 1404. أبريل، 1984، ص 254.
- ²⁴ نفس المرجع. نفس الصفحة.
- ²⁵ ابن جني، الخصائص، ج 2، ص 154.
- ²⁶ ابن الجني، الخصائص، ج 1، ص 65.
- ²⁷ المرجع نفسه، ج 2، ص 166.

9. المصادر والمراجع:

- ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص - 1002 نجار، محمد علي. مكان النشر: بيروت: الناشر: دار الهدى للطباعة والنشر،
- ابن جني، المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تح: علي النجدي ناصف، عبد الفتاح اسماعيل شلبي، ج 2، ط 2.
- ابن جني، سر صناعة الإعراب، تح: حسن هندراوي، ج 2.
- تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، المغرب، دار الثقافة في الدار البيضاء، ط 1، 1974.

- جورج موانان، علم اللغة في القرن العشرين، تر: غزاوي مؤسسة الوحدة، دمشق، د.ث.
- جون كانتينو، دروس في علم أصوات العربية، تعريب: صالح القرمادي، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، 1966م
- حسام سعيد النعيمي، ابن جني عالم العربية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1990م.
- أحمد فهمي حجازي مدخل إلى علم اللغة، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، ط1،
- مصطفى السواحلي، ابن جني ناقدًا، دار الأفق العربية، ط1، 2015م.
- مجلة التراث العربي، العددان 15 و16، 1404. أبريل، 1984م